المبادرات الإصلاحية للشيخ محمد عبده في جامعة الأزهر

طارق أحمد آهنغر*

والأزهر في مقدمة الجامعات العلمية التي سارت مع التاريخ أجيالا طوالا، فهو أطولها عمرا، وأجلّها أثرا في تاريخ الفكر العربي والإسلامي، وإنّ ألف سنة أو تزيد قضاها الأزهر الجامعي، وشاهد أحداث الضخمة واشترك فيها مؤثرا وموجها لتاريخ ممعن في الطول، لا يمكن استيعاب حياة جامعة علميّة لم تدوق أخبارها فيه إلا بمشقة وعسر وجهد وإرهاق شديد، ولم تعمر في الشرق جامعات علمية غير الأزهر في القاهرة، والزيتونة في تونس، ولكن الأزهر ينفرد بضخامة ما أحدث من آثار في تاريخ العرب والمسلمين من شتى النواحي الروحية والثقافية والفكرية والسياسية والقومية والاجتماعية، بل والاقتصادية كذلك. والأزهر طول عصور التاريخ حارس التراث العربي ومجدد الثقافة الإسلامية والمشعل الذي يضيء أفئدة المسلمين في كل مكان، والضوء ينير لهم الطريق، ويبصرهم سواء السبيل، ولذا إنه دواعي الفخر للأزهر الشريف أن ينظر اليه المسلمون كافة خلال العشرة القرون الماضية نظرة مملوءة بالإكبار والإجلال، وأن يعتبروه كعبتهم الثانية التي استبدت بشرف المحافظة على التراث الإسلامية المجيدة.[١]

وجامعة الأزهر التي أسّسها الفاطميون في ١٤ من رمضان سنة ٣٥٩هـ/٩٧٠م.[٢] لها تاريخ عريق ومساهمتها في تربية الأجيال منذ تأسيسها ملحوظة، وله مهمة معلومة نيط به أداؤها، فلم يكن المقصود منه أن يكون

---

* الأستاذ المساعد، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة كشمير، سرينغر

مسجدا للعبادة، ولا أن يكون مدرسة للتعليم فحسب، وإنما أثّرت في العالم الإسلامي وفي تكوين العقلية الإسلامية أثراً عميقاً كما كان أثرها في المساجد والمدارس والجامعات العربية والإسلامية، وكتبت دائرة المعارف كوليرز (colliers). " ويفد إلى الأزهر الألوف من دول العالم الإسلامي ويعتبر أقدم جامعة في العالم تُدرّس علوم القرآن والشريعة مع العلوم التطبيقية والأكاديمية."[٣]

وقد لعب الأزهر دورا رئيسيا في إشاعة الأفكار الإسلاميّة والثقافيّة والعلمية حتى ظلّ مشعلا إسلاميّا وعلميّا يستنيره الطلبة والدارسون حتى في عصور الانحطاط والجمود، وكان الأزهر سهرانا مستيقظا حينما كانت البلاد العربية غارقة في نومها العميق، ولكن قصر دوره على احتفاظ بالتراث العربي الثقافي الإسلامي ولم يتمكن له من أن يلتزم بالعلوم الجديدة والفنون الحديثة كما لم يتمكن له من أن يسائر الزمن حتى نصف القرن التاسع عشر عندما سافرت الثقافة الغربية إلى البلاد الشرقية وخاصة إلى مصر، واختلط الشعب المصري بالشعب الغربي وتأثّر بالعلوم الحديثة والفنون الجديدة والأفكار الاجتماعية والاقتصادية، فطبعا بلي منهجه نظرا إلى متطلبات العصر الحديث، وكره الشديد إلى أن يتغير منهجه ، كان الأزهريون يقصرون هممهم على دراسة الكتب والحواشي والتقارير التي وضعت في العصور المتأخرة ،عصور الجمود والتخلف وركود الفكر مقتصرين على تقرير العقائد وأحكام الفقه على مذهب معين من المذاهب الأربعة، كما صرّح الشيخ محمّد عبده قائلا:

"والجامعة الأزهر التي يناط بها الدعوة إلى الإسلام والدفاع عنه، ضد الحملات الإلحادية والصليبية عبر الزمان، فإذا به يتحوّل إلى تخريج الفقهاء الذين لا يعرفون سوى كتب معينة ينفقون أعمارهم رخيصة في حل رموزها، وحكاكات ألفاظها، ولا يجيدون شيئًا سواها وسوى التقليد الأعمى والحزبية المذهبية الضيقة التي تجعل من الإسلام الواحد أنواعًا كثيرة متفرقة من

الإسلام، هذا فضلاً عن سوء الحالة الصحية وجهل الطلاب والعلماء جميعًا بكل شيء من العلوم الأخرى غير بعض العقائد والأحكام الفقهية على أحد المذاهب"[٤].

من أجل ذلك كان لإصلاح ذلك المعهد أهمية كبيرة في نظر الشيخ محمّد عبده، لأن الأزهر كان بمثابة إصلاح الأمة الإسلامية كلها.

إصلاح الأزهر

ولقد كان الأمل الكبير للشيخ محمّد عبده في إحياء التعليم الإسلامي معلقًا على إحياء الأزهر وإصلاحه، وهو معقل هذا التعليم وحلقة الوصل بين المسلمين، وكان يرى أنّ التربية الدينية هي عمود التعليم، ويضاف اليها العلوم النافعة لتقدم الأمة من أهم احتياجاتها وصرّح قائلا: "فإن المسلمين إذا تهذبت أخلاقهم بالدين، سابقوا الأوربيين في اكتساب العلوم وتحصيل المعارف ولحقوا بهم في التمدن"[٥]. وكان يرى أنّ اكتساب العلوم وتحصيل المعارف بدون التربية الأخلاقية النابعة من التعاليم الإسلامية، لا تؤدي بالأمة إلى غير القلق والهذيان، والتربية الدينية الصحيحة هي العلاج لكل أدواء المجتمع.

قام الشيخ محمّد عبده بإصلاح الأزهر على المستويين، وهما على المستوى الحكومية والمستوى الشعبية.

إصلاح الأزهر على المستوي الحكومية.

توجّه الشيخ محمّد عبده إلى إصلاح الأزهر منذ كان مجاوراً فيه يتلقى على أستاذه السيّد جمال الدين الأفغاني، وشرع في العمل لذلك أيام الخديوي توفيق، ولكنه لم يستطع في ذلك الحين أن يدخل إلا بعض الإصلاحات الثانوية، والخديوي توفيق لم يكن لديه استعداد لفهم التجديد المنشود، فلم ينظر إلى جهود الشيخ محمّد عبده بعين العطف والرعاية. ولما جاء الخديوي عباس

الثاني، وهو قد تربّى في أوربا واستبشر الناس بولايته ورأوا فيها فاتحة عهد جديد، وتقدم الشيخ محمّد عبده إليه وكاشفه بجملة رأيه في الأزهر ورغبة في إصلاحه وتحويله من الحال التي كان عليها.

وقد استطاع محمّد عبده في أول العلاقة بينه وبين الخديوي عباس، أن يقنعه بإصلاح الأزهر، فسن قانونًا تمهيديًا لإصلاح الأزهر، وصدر القرار بتشكيل مجلس إدارة الأزهر برئاسة الشيخ حسونة، انتخب أعضاؤه من كبار علماء الأزهر، وفيه الشيخ محمّد عبده وصديقه الشيخ عبد الكريم سلمان مندوبين عن الحكومة، وكانت مهمة ذلك المجلس الإشراف على التعليم والتربية في الجامعة الأزهرية، واغتنم الشيخ هذه الفرصة لإصلاح الأزهر الذي تمناه من يوم ان كان مجاورا ساخطا على سوء حاله،٦ فخطا الخطوات العديدة في إصلاحه وأهمها:

١. تحديد مدة الد راسة

وكان أول أبواب الإصلاح التي وجه الشيخ عنايته إليها هو تحديد مدة الدراسة بالأزهر، فقد جرى العرف منذ زمان طويل أن ينفق المجاورون من أعمارهم الأعوام الطويلة في الأزهر دون أن يجدوا من أولى الأمر أية رقابة على أعمالهم، وحدّد القانون بدء السنة الدراسية ونهايتها كما حدّد أيام العطلة والمسامحات، وقد كانت الحال قبل ذلك بلا ضابط، فكان المشايخ والطلاب يمكنهم التغيب متى شاءوا فضلاً عن تغيبهم أيام المسامحات الرسمية

٢. العناية إلى نظام التدريس والامتحان

فاقترح الشيخ أن تعقد للطلبة امتحانات سنوية ولم يكن ذلك النظام معروفاً قبل ذلك في الأزهر، بل لم يكن عدد من يمتحنون كل عام يزيد على ستة، وهؤلاء كانوا يتقدمون إلى الامتحان لا بحسب دورهم أو ذكائهم أو علمهم،

بل بشفاعة الشفعاء وإلحاح الملحين، واقترح المشروع كذلك مكافأة الطلبة المتفوّقين من بين الممتحنين، والغرض من ذلك طبعاً هو بث روح التسابق فيهم وترغيبهم في التحصيل.

٣. التحوير في المقرّرات الدراسيّة

وثالث الإصلاحات التي اقترحها الشيخ محمّد عبده أنّ إصلاح لا يقل عن سابقيه أهمية وأثراً، وهو يقضي بإلغاء دراسة بعض الكتب العقيمة، كالشروح والحواشي والتقارير، التي اعتاد المشايخ تلقينها الطلبة من غير فهم، كما صرّحه أحمد أمين قائلا: " كل الكتب التي تدرّس في الأزهر من نتاج العصور المتأخرة، تحدّرت من العصور الزاهية، ولكن عدا الزمان عليها فأفقدها روحها فصارت شكلا، النحو كان يراد منه النطق الصحيح والكتابة الصحيحة وفهم كتب الأدب فهما صحيحا، وصار مجرد تفهّم لألفاظ المؤلفين في النحو. وأصول الفقه كان يقصد منها التمرين على الاجتهاد في التشريع، فأصبحت بلا اجتهادَ ولا تشريع، والبلاغة كان يقصد منها كيف يكتب القول البليغ".[٧]

٤. تقسيم العلوم إلى المقاصد والوسائل

واقترح الشيخ محمّد عبده بتقسيم العلوم التي تدرس بالأزهر إلى مقاصد ووسائل، فأطيلت مدة الدراسة في (علوم المقاصد) كالتوحيد، والتفسير، والحديث، والفقه، وأصول الفقه، والأخلاق. أما (علوم الوسائل) كالمنطق، والنحو، والبلاغة، ومصطلح الحديث، والحساب، والجبر، فهي التي يلزم طلاب شهادة العالمية بأداء امتحان فيها.

٥. إدخال المعارف الحديثة

ولا شك في أنّ الشيخ محمّد عبده قد تخرج من الأزهر الشريف وكان يعرف منهجه المتخلّف الذي كان يقوم فيه على الفلسفة اللفظية، ويعلم طالبه

الدقة في الفهم والقدرة على الجدل ولكن مع الأسف لا تستخدم هذه الدقة ولا الجدل الّا في الالفاظ، وتجعل صاحبها غارقا في الاحتمالات بما يراه في الحواشي والشروح من التأويلات فكل شيء يجوز حتى دخول الجمل في البندقة على حد تعبير الشيخ محمّد عبده نفسه:

> "يتم الطالب الدراسة فيه فيخرج فاهما لبضعة كتب، أما الدنيا وشؤونها فانه يجهلها كل الجهل، فلا جغرافية ولا طبيعة ولا كيمياء ولا رياضة فكل هذه علوم أهل الدنيا، وما للآخرة والدنيا! ومع هذه فالنزاع على الجراية كثير، وعلى الوظائف الصغيرة أكثر. كل شيء خارج عن المألوف كفر أو حرام أو مكروه، فتحويل "الميضأة" القذرة إلى حنفيات حرام، وذهاب للبركة! وقراءة كتب في الجغرافية أو الطبيعة أو الفلسفة حرام، ولبس ((الجزمة)) بدعة".[٨]

فأحسّ أنّ هذا الإهمال عن تدريس العلوم الحديثة لا يقود الأمة الا إلى هوة الهلاك، فمن اللازم إدخال دروس ومحاضرات جديدة في علوم التاريخ والتاريخ الطبيعي والرياضيات والجغرافيا والفلسفة والاجتماع وما إلى ذلك من العلوم، فوصّى بالإدخال العلوم هذه في مقرّراته التي كان قد أهمل تدريسها بالأزهر إلى ذلك الحين.

٦. وضع الأصول للأزهر

اقترح الشيخ محمّد عبده بوضع الاصول التي ينبغي أن يراعيها المدرسون والطلبة وينبغي أن يسيرو عليها، وبما فيها ضرورة لمواظبة الطلاب، بعد أن كان الطلاب لا ضابط لهم في الغياب والحضور، كما كان المدرسون لا يهتمون بذلك، ولا يهتمّون بتحضير الدروس، أو الالتزام بموضوع معين في مادة معينة، وكثيرًا ما

كانوا يتبعونها من قبل.

٧. إصلاح المكتبات

وقد أمر الخديوي بصرف مبلغ آخر، خصّص منه جانبا لدار الكتب التي أنشئ لها "مجلس الإدارة"، التي قامت بتنظيم الكتب على النمط الحديث، وقد كانت الكتب مبعثرة في الأزهر في الأروقة والحارات، معرضة للضياع والتلف قبله، ثم جعل للأزهر طبيبًا وصيدلية وتيسر لها بعض المرافق.

أراد محمّد عبده أن يصلح كل ذلك، وكاد يفلح في مسعاه، لولا أن تغير عليه قلب الخديوي، فأعرض عن الإصلاح وانحاز إليه فريق كبير من شيوخ الأزهر الذين وقفوا عقبة حقيقية في سير التقدّم والنهوض بهذا الجامع العريق. وتولى مشيخة الأزهر الشيخ سليم البشري في يوليو ١٨٩٩م. وكان رجلا محافظا مناوئا لكل فكرة عن التجديد، ولعل هذا السبب هو الذي جعل ذلك الرجل من المقربين إلى الخديوي، فعطّل أعمال المجلس، وأصدر قرارا بإلغاء الإعانات التي كانت تعطي للطلبة المتفوقين. وكان معنى هذا العدول عن عقد الامتحانات السنوية [٩] وما زال الازهر على تلك الحالة وتوقفت البرامج الإصلاحية حتى عُين الشيخ الببلاوي شيخا للأزهر. وكان الوفاق تاما بينه وبين الشيخ محمّد عبده، فعاد الهدوء إلى الأزهر وأقبل الطلاب على دروسهم وامتحاناتهم، وانصرف مجلس الإدارة إلى الاشتغال بإنجاز الأعمال العديدة التي كانت أهملت في عهد الشيخ سليم البشرى، فقرر المجلس عقد امتحان الشهادة العالمية التي تمنح الحاصلين عليها حق التدريس في الأزهر أو القضاء أو الإفتاء. [١٠]

والحق أنّ الإصلاح الذي كان ينشده الاستاذ الإمام في الأزهر قسمان: صوري ومعنوي، فأما الصوري فهو:

١. النظام الذي يقضي على ما كان فيه من الفوضى في التعليم والحياة

البدنية والاجتماعية.

٢. توسيع دائرة العلوم والمعارف.

٣. ترقية اللّغة ا لعربية.

وأما المعنوي فهو

١. إصلاح العقل بالاستقلال في العلم والفهم.

٢. صحة القصد فيه بما يفصى إلى ارتقاء الامة في دينها ودنياها.

٣. إصلاح الأخلاق بالصدق والإخلاص وعزة النفس والسخاء والوفاء.[١١]

و يظهر بما قدّمنا أنّ الشيخ محمّد عبده لم يكن مصلحا الذي سعى لإصلاح ناحية من نواحي الحياة، مثل المصلحين الذين يقومون بإصلاح جانب من جوانب الاجتماعية فحسب، بل إنه قام بإصلاح جميع الجوانب الاجتماعية ووضع مشروعه الشامل بهذا الصدد، ولم يكتف على كتابة المقالات في الجرائد والمجلّات بل خطا خطوات عملية لإصلاح مصر، وخلال عمله كمفتي لمصر، كان مثالا لرجل الإصلاح والتعليم وكان أول قراراته، إنشاء ادارة للمساجد، ودعا إلى فتح باب الاجتهاد لمعالجة القضايا الملحة، ووافق الشيخ محمّد عبده على مشاركة المرأة في الأمور السياسة وعلى تعليمها، وخطا خطوات عديدة لإصلاح أزهر ودعا إلى إنشاء الجامعة الأهلية.

الهوامش:

١. خفاجي، محمّد عبد المنعم: الأزهر في ألف عام، مكتبة كليات الأزهر،٤ أجزاء، مكتبات الكليّات الأزهرية، القاهرة، ١٩٨٨م. ص: ٧

٢. حسن، إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني، والثقافي، الاجتماعي، ج:٣، ص: ٤٢١

٣. نفس المرجع: ص: ٨

٤. أمين، عثمان: رائد الفكر المصري، المجلس الأغناني للثقافة، القاهرة -مصر.ص:٢٧٤

٥. نفس المرجع، ص:٢٧٢

٦. أمين، أحمد: زعماء الإصلاح في العصر الحديث، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان. ص: ٣١٧

٧. نفس المرجع، ص: ٢٨٩)

٨. نفس المرجع، ص:٢٨٩

٩. رائد الفكر المصري الإمام محمّد عبده ص: ١٩٣

١٠. نفس المرجع، ص: ١٩٣

١١. رضا، رشيد: تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمّد عبده، ط: ٢، عدد أجزاء:٣، دار الفضيلة، القاهرة، ج:١، ص: ٥٦٧

* * *